

البَابُ الثَّانِي

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مِنْ أَنْتَ؟

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه
من تراب ثم قال له كن فيكون)

(٥٩ آل عمران)

«كلکم لآدم وادم من تراب» .

(حدیث شریف)

أيها الإنسان .. من أنت ؟

ما حقيقتك ؟ ومن تكون ؟ لو سأل الإنسان نفسه هذا السؤال الواضح البسيط لأعياء الجواب . ذلك أن بعض الناس قد تتداعى إلى أذهانهم إجابات سطحية فجة وتافهة ، فقد يعرف أحدهم نفسه باسمه ونوعه وجنسه وشكله .. وقد يرى غيره أن ذلك التعريف به قصور فيضيف إليه مؤهلاته العلمية وعمله ومحل سكنه وحالته الاجتماعية .. وقد يضيف ثالث معلومات أخرى حتى يستطرد في سرد القصص توضيحاً وتفصيلاً .. ولكن حتى ذلك الثالث الذي يظن أنه شرح فأوفى وجمع فأوعى .. سوف يضحك من نفسه طويلاً إذا علم أن الإجابة على ذلك السؤال تقتضى منه أن يدفع من عمره بضع سنوات بحثاً وتفكيراً :

يقول العقاد في كتاب له بعنوان (الإنسان في القرآن)^(١).

(استمع الناس إلى المادية التاريخية فقالت لهم إن الإنسان عملة (اقتصادية) في سوق الصناعة والتجارة تعلق وتهبط في طبقاتها بمقياس العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الإنسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية فقالت لها إنها شيء لا وجود له مع طوائفها التي تخلقها الأسعار والأجور .

واستمع الناس إلى الفاشية فقالت لهم إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود وإن أبناء الإنسانية جميعاً عبيد للعنصر السيد والعنصر السيد قبل

(١) سبق الإسارة.

ذلك عبد للسيد المختار بغير اختيار .

واستمع الناس إلى العقلية فقال لهم قائل منها إن (إنسانيتهم) كذلك شيء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وأن الشيء الموجود حقاً هو الفرد الواحد ، وبرهان وجوده حقاً أن يفعل ما استطاع من نفع أ وأذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث .

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء ومكانه من إخوته في آدم وحواء . .

سمعوا أنه روح وجسد .. ودنيا وآخرة .. ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبي الفناء .

وسمعوا أنه إنسانان : إنسان صحيح مقبول .. وإنسان زائف مدخول - صحيح مقبول .. كل من اجتباه مولاه على هداة - وزائف مدخول .. كل من خلقه ونفاه ولعله لم يخلقه ودعاه إليه من دعاه .

وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره ويموت بذنب غيره .. ويرأى من الذنب بكفارة غيره ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ومن إباء أو اختيار .

وسمعوا من القرآن عن بنى الإنسان غير ذلك :

فهم متدبرون يستمعون إلى العقل .. كما يستمعون إلى الإيمان إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليه .. فالإنسان في القرآن هو الخليفة المستول بين جميع ما خلق الله يدين بعقله فيما رأى وسمع ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب فلا تدركه الأبصار والأسماع و (الإنسانية) من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها(نسب واحد ورب واحد ..) .

ومن آياته أن خلقكم من تراب

من بين سور القرآن البالغ عددها مائة وأربعة عشر سورة تحدثت أكثر من سبعين سورة منها عن خلق الإنسان وعن أطوار هذا الخلق المعجز البديع وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر هذه الآيات من كتاب الله :

- (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) (١٠ الإنسان) .

- (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) . (٣٠ البقرة)

- (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون .

فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون) . (٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ الحجر)

- (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) . (٦٧ مريم)

- سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا

يعلمون) . (٣٦ يس)

- (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) .

(٢٠ الروم)

- (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً) . (١١ فاطر)

- (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً

ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً) . (٦٧ غافر)

- (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) . (٥٥ طه)

-- وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم
سواه ونفخ فيه من روحه . (٧ ، ٨ ، ٩ السجدة)

- (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار
مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا
العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . (١٢ ، ١٣ ،
١٤ المؤمنون) .

- (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) . (٢)
الأنعام

- (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حميا مسنون) . (٢٦ الحجر)
- (خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من مارج من
نار) . (١٤ ، ١٥ الرحمن)

- (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) .
(١٨٩ الأعراف)

- (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديراً) .
(٥٤ الفرقان) .

- (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب
والترائب) . (٥ الطارق)

- (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا
ونساء) . (النساء)

- (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سمياً بصيراً) .
(٢ الإنسان) .

- (قتل الإنسان ما أكفره ، من أى شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ،

ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ،
٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ عبس)

- (وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) . (٧٩ المؤمنون)

- (وقد خلقكم أطواراً) . (١٤ نوح)

- (خلق الإنسان من علق) . (٢ العلق) .

- (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من

بعد قوة ضعفاً وشيبة) . (٥٤ الروم)

- (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على

أنفسهم ألست بريكم قالوا بلى شهدنا) . (١٧٢ الأعراف) .

- (الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك) . (٧ ، ٨

الانفطار)

- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) . (٤ التين)

هذه بعض الآيات التى توضح لنا خلق الإنسان ومصادره ومراحلها غير أن

الله سبحانه وقد خص الإنسان برعايته ينزل فى القرآن آيات أخرى توضح لنا

كيف أن الله قد خلق الإنسان متنازحاً بين السمو والإسفاف عنده الاستعداد

للترقى :.. كذا الاستعداد للتدلى .. والآيات التالية على سبيل المثال أيضاً تبين أن

الإنسان فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف :

- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) . (٤ التين)

- (ولقد كرمتنا بنى آدم) . (٧٠ الإسراء)

- (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة) . (٣٠ البقرة)

- كذلك فإن الآيات التالية على سبيل المثال تقرر أن الإنسان فى الدرك

الأسفل من الحطة إذا هو انحدر :

- أولئك كالأنعام بل هم أضل . (١٧٩ الأعراف)

- إن الإنسان لظلوم كفار . (٣٤ إبراهيم)

- إن الإنسان لربه لكنود . (٦ العاديات)

- إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . (٦ ، ٧ العلق)

- إن الإنسان لفي خسر . (٢ العصر)

وقد يذكر الإنسان بالصفيتين في الآية الواحدة :

- لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين .

(٤ ، ٥ التين) .

على أن الآيات التي قصر فيها القول على خلق الإنسان لم تخل مما يوحى بأن أطوار خلق الإنسان السوى هي إعداده لما هو أشرف من حياته الحيوانية عسى أن ينظر في الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذي لا تدركه الأبصار والأسماع ..

* * *

ورد في مختصر صحيح مسلم - كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم - باب في ابتداء خلق آدم عليه السلام : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم العصر من يوم الجمعة . في آخر الخلق .. في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » .

فكرة خلق الإنسان عند بعض الأمم

ارتبطت فكرة الخلق دائماً بإطار ديني منذ فجر التاريخ - ففي الهند مثلاً :

نجد الأسفار المعروفة بالكتب الفيديّة التي نقرأ فيها نصوصاً كهذا النص :
« إن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة فأمرها بأن توجد فبرزت
على الفور إلى حيز الوجود » .

وفي الصين واليابان نجد نصّاً يقول :

« إن إله السماء هو الذي يصرف الأكوان ويدبر أمور الإنسان » .

وفي تراث الفرس نجد في عقيدتهم :

« الله هو أسمى الذي يتجلى في أرواح عليين وهو أقوى القوى في عالم

الملكوت ومن أسمائه الخلاق .. »

لكن الفكرة عند الفراعنة تبدو أكثر وضوحاً وتفصيلاً ونرى ذلك في

القصيدة المسماة قصيدة إخناتون وقد جاء فيها :

« أيها الإله الأوحّد ، الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا خالق الجرثومة

في المرأة ، ويا صانع النطفة في الرجل ، ويا واهب الحياة للابن في جسم أمه ،

ويا من يهدئه فلا يبكي ، ويا من يغذيه حتى في الرحم ، يا واهب الأنفاس ،

يا من ينعش كل ما يصدفه ، وحين يخرج من الجسم في يوم مولده تفتح أنت

فاهه لينطق وتمده بمحاجاته ، والفرخ حين يزقزق في البيضة تهبه النفس فيها

لتحفظ له حياته ، فإذا ما وصلت به إلى النقطة التي عندها تكسر البيضة خرج

من البيضة ليغد بكل ما فيه من قوة - ويمشى على قدميه ساعة يخرج منها - ألا

ما أكثر أعمالك الخافية علينا - أيها الإله الأوحّد الذي ليس لغيره سلطان

كسلطانه ، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً - إن الناس

والأنعام كبيرها وصغيرها وكل ما على الأرض من دابة وكل ما يمشى على

قدميه ، وكل ما هو في العُلاّ ويطير بمحاجيه - إنك تضع كل إنسان في موضعه

وتمدّم بمحاجاتهم لتحفظ حياة الناس » .

وهذه النماذج الثلاثة من النصوص ليست كل ما لدى الإنسانية مما يبرز أن
الفكرة عاشت في إطار ديني .. ولكنها بعض الحصاد ..
وسوف نمضي بالقارئ عبر صفحات الكتاب لنرى أن تلك النصوص التي
ذكرناها كانت مجرد إشارة لإرهاصات الفكرة في خطواتها البدائية ، حتى جاء
القرآن الكريم ليقص علينا القصة صريحة وصحيحة .. فتبارك الله أحسن
الخالقين .

آدم أول الناس والكعبة أول بيت

بدء الإنسانية في مكة حول البيت العتيق^(١)

قال أبو الفتح الشهرستاني في صدر كلامه عن (آراء العرب في الجاهلية
الجزء الثالث من القسم الثاني ص ١٢٢٠ - ١٢٢١ من كتاب الملل والنحل) .
« ... وقبل أن نشرع في مذاهيم نريد أن نذكر حكم البيت العتيق -
حرسه الله تعالى - ونصل بذلك حكم البيوت المبنية في العالم ، فإن منها ما بنى
على الدين الحق قبلة للناس ، ومنها ما بنى على الرأي الباطل فتنة للناس » .
وقد ورد في التتزيل : (إن أول بيت وضع للناس الذي بيكة مباركاً وهدى
للعالمين) (٩٦ آل عمران) . وقد اختلفت الروايات في أول من بناه : قيل :
إن آدم - عليه السلام - لما أهبط إلى الأرض ، وقع إلى سرنديب من أرض
الهند ، وكان يتردد في الأرض متحيراً بين : فقدان زوجته ، ووجدان توبته ،
حتى وافى حواء - عليها السلام - بجبل الرحمة من عرفات وعرفها ، وصار إلى
أرض مكة ، ودعا وتضرع إلى الله تعالى ، حتى يأذن له في بناء بيت يكون قبلة
لصلاته ، ومطافاً لعبادته ، كما كان قد عهد في السماء من البيت المعمور ،

(١) عن عجاله في تاريخ الأديان لمحمد بن فتح الله بدران .

الذى هو مطاف الملائكة ، ومزار الروحانيين فأُنزل الله تعالى عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور ، فوضعه مكان البيت ، وكان يتوجه إليه ، ويطوف به .

ثم لما توفى ، تولى وصيه « شيث » عليه السلام بناء البيت من الحجر والطين على الشكل المذكور ، حذو القذة بالقذة .

ثم لما خرب ذلك بطوفان نوح - عليه السلام - وامتد الزمان حتى غيض الماء ، وقضى الأمر ، وانتهت النبوة إلى إبراهيم الخليل - عليه السلام - بنى مع إبراهيم ابنه إسماعيل ذلك البيت ، وذلك قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) (البقرة) ١٢٧ .

وهكذا : كان مسقط رأس الإنسانية في « مكة » البلد الحرام ، وحول « الكعبة » بيت الله الحرام في قلب بلاد العرب .

وهنا نسل « آدم » عليه السلام ، وهنا دببت السلالة الأولى لجميع الأنام ، وهنا تربت الأصول الأولى للرسول الخاتم سيد ولد آدم ، وهنا بقى العرب حتى بعث فيهم نبي الإسلام : (بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (التوبة) ٣٣ .

« آدم » أول الناس في أرض الله ، و « الكعبة » أول بيت للناس وضعه الله ، وهكذا يتعبد أول خلفاء الله ، في بيت الله .. ثم فرض الله على الناس جميعاً حج بيته هذا ، من استطاع إليه سبيلاً .

(إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) . (آل عمران ٩٦ - ٩٧) .

وقد خص الله هذا البيت بالشرف والكرامة ، وأضافه إلى نفسه ، فكان :
بيت الله ، والبيت الحرام ، والبيت العتيق ، والبيت المبارك ، وهدى للعالمين .
كما خص « مكة » بالفضل والرعاية ، لأنها بلد بيته ، ومهبط وحيه ،
ومنبت خاتم رسله .. فأقسم بها ، وتكفل سبحانه بأمنها ، وخصها بالعرب أهلا
لها ..

فقال تعالى : (والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ..)
(١ - ٣ التين) ، وقال لحبيبه محمد عليه السلام : (لا أقسم بهذا البلد ،
وأنت حل بهذا البلد .) (١ ، ٢ البلد) .

وهذا رب العالمين يقول عن البيت الحرام ، ومكة الأمين : (وإذ جعلنا
البيت مثابة للناس وأمنًا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم
 وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم
رب اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم
الآخر قال ومن كفر فأتعنه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس
المصير ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك
أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا
مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو
عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) .
(البقرة ١٢٥ - ١٢٩) .

بل لقد أسكن إبراهيم الخليل ولده إسماعيل الذبيح عليها السلام ، في
مكان هذا البلد الحرام ، وكان قفراً بلقعاً ، لا ماء فيه ولا نبات ولا شجر ،
ليقيم إسماعيل وبنوه فيه الصلاة ، وليكون : قبلة للمؤمنين ، وهدى للعالمين ...
(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد

الأصنام، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ، الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء ، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) . (إبراهيم ٣٥-٤١)

وأخيراً ، يقول الله سبحانه على لسان الرسول الخاتم والنبي العربي عليه السلام :

(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ، وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) . (النحل ٩١-٩٣)

قصة بداية الإنسان في القرآن

فالقرآن يحكي لنا في سورة البقرة قصة بداية خلق الإنسان واضحة صحيحة .

يقول تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) وجاعل هنا بمعنى خالق ذكره الطبري عن أبي زروق .. والأرض قيل : إنها مكة ولذلك سميت أم القرى روى عن ابن سابط عن النبي ﷺ قال :

(دحيث الأرض من مكة ^(٢) . وخليفة أى يخلف من كان قبله من غير الملائكة أو من الملائكة فى الأرض . والمعنى بالخليفة هنا (الخليفة ^(٣)) فى قول زيد بن على) أما فى قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل (آدم عليه السلام) فهو أول رسول إلى الأرض كما فى قول أبى ذر : قلت يا رسول الله أنبيأ كان مرسلأ ؟ قال نعم الحديث .. ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن فى الأرض أحد ؟ فىقال : كان رسولا إلى ولده وكانوا أربعين ولدأ فى عشرين بطنأ فى كل بطن ذكر وأنثى وتوالدوا حتى كثروا . (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء) . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وعاش تسعائة وثلاثين سنة - هكذا ذكر أهل التوراة - وروى عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة - والله أعلم .

وقيل إن الملائكة لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد فقالوا : أنجعل فيها من يفسد فيها فعمموا الحكم بالفساد والمعصية فقال الله لهم : إنى أعلم مالا تعلمون ، وحقق ذلك سبحانه بأن علم آدم الأسماء كلها وكشف للملائكة عن مكنون علم آدم الذى علمه له ويحتمل أن يكون بالإلهام أو بواسطة ملك وهو جبريل ولولا أن الله كشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة :

وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر وقيل : أبا محمد . كنى بمحمد خاتم الأنبياء ﷺ قاله السهيلي .. وقيل كنيته فى الجنة أبو محمد وفى الأرض أبو البشر وأصله بهمزتين (أادم) لأنه أفعل إلا أنهم لينوا الثانية (عن الأخفش) واختلف فى اشتقاقه .. قيل مشتق من الأدمة وهى السمرة واختلفوا فى الأدمة فزعم

(٢) يقول علماء الجغرافيا المعاصرون إن مكة هى مركز الكرة الأرضية .

(٣) الخليفة (بالقاف) .

الضحك أنها السمرة وزعم النضر أنها البياض قلت (القرطبي) والصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال ابن سعيد بن جبير : إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض وإنما سمي إنسانا (لأنه نسي) .. ولقد عهدنا إلى آدم من قبل نفي ولم نجد له عزماً) . ذكره ابن سعيد في الطبقات وروى السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود في قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشيني ، فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ولذلك سمي آدم لأنه أخذ من أديم الأرض ، فصعد به فقال الله تعالى له : (أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك) . فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها فقال : (أنت تصلح لقبض أرواح ولده) . فبيل التراب حتى عاد طيناً لازباً (يلتصق بعضه ببعض) ثم ترك حتى أنتن (من حمأ مسنون) قال : (منتن) ثم قال للملائكة : (إني خالق بشرًا^(٤)) من طين^(٥) . فإذا سويته

(٤) صوراً أو شخصاً أو جسداً : وقد ذكر الجسد في القرآن بلفظه ٤ مرات فقط . في سور الأعراف وطه والأنبياء و ص :

(واخذ قوم موسى من بعده من حليم عجلاً جسداً) (١٤٨/الأعراف)

(فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار) (٨٨/طه)

(وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) (٨/الأنبياء)

(ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) (٣٤/ص)

(٥) أحصى العلماء العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان وقالوا : إن به من الكربون ما يكفي =

ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) . فخلقه الله بيده لكي لا يتكبر إبليس عليه . يقول : أتتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه .

فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فرعًا إبليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة ، فذلك حين يقول : (من صلصال كالفخار) ويقول : لأمر ما خلقت . ودخل من فيه وخرج من دبره فقال إبليس للملائكة لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكته ، ويقال : إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول : أرايتم هذا الذي لم تروا من الخلاق ما يشبهه أن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ؟ قالوا : نطيع أمر ربنا فأسر أبليس في نفسه لئن فضل على فلا أطيعه ، ولئن فضلت عليه لأهلكته ، فلما بلغ الحين الذي أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال الله للملائكة : فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت له الملائكة : قل : الحمد لله ، فقال : الحمد لله فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح رجله قام عجلان إلى ثمار الجنة (خلق الإنسان من عجل) .. وسجد الملائكة أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر .

وروى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال : سمعت رسول الله ﷺ

يقول : إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض .. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ..
والسهل والحزن والخبيث والطيب .

= لعمل تسعة آلاف قلم رصاص ، ومن الفوسفور ما يكفي لعمل ألفي رأس عود كبريت . كذلك في الإنسان حديد وجير وبوتاسيوم وملح ومغنسيوم وسكر وكبريت ، وهي كلها من العناصر التي تتكون منها تربة الأرض) .

وروى أبو نعيم الحافظ في كتابه عن مرة عن ابن مسعود : أن الملك الموكل بالرحم يأخذ النطفة فيضعها على كفه ثم يقول : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال مخلقة . قال : يارب ما الرزق ، ما الأثر ، ما الأجل ؟ فيقول : انظر في أم الكتاب فينظر في اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأثره وأجله وعمله ، ويأخذ التراب الذي يدفق في بقعته ويعجن به نطفته (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) . وخرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مولود إلا وقد ذر عليه من تراب حفرة) . .. وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقاً من طين وماء مهين .

وذكر ابن سعد في الطبقات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (الناس ولد آدم وآدم من التراب) . وعن سعيد بن جبير قال : خلق الله آدم عليه السلام من أرض يقال لها دجناء قال الحسن : وخلق جؤجؤه (صدره) من ضرية (قرية لبني كلاب على طريق البصرة وهي إلى مكة أقرب) . وعن ابن مسعود قال : إن الله تعالى بعث إبليس فأخذ من أديم الأرض من عذبا ومالحها فخلق منه آدم عليه السلام . فكل شيء خلقه من عذبا فهو صائر إلى الجنة، وإن كان ابن كافر، وكلّ شيء خلقه من مالحها فهو صائر إلى النار، وإن كان ابن تقي ، فن ثم قال إبليس (أأسجد لمن خلقت طيناً) لأنه أتى بالطينة . وعن عبد الله بن سلام قال : خلق الله آدم في آخر يوم الجمعة . وعن ابن عباس قال : لما خلق الله آدم كان رأسه يمس السماء - قال - فوطده إلى الأرض حتى صار ستين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً . وعن أبي بن كعب قال : كان آدم عليه السلام طوالاً جداً كأنه نخلة سحق . وعن ابن عباس - في حديث فيه طول - وحج آدم عليه السلام من الهند إلى مكة أربعين حجة على رجله ، وكان آدم حين أهبط تمسح رأسه السماء ونفرت من طولها دواب البر

فصارت وحشاً من يومئذ ، ولم يمضِ آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً ، وتوفى على ذروة الجبل الذى أنزل عليه ، فقال شيث لجبريل عليهما السلام : (صل على آدم) فقال له جبريل عليه السلام : تقدم أنت فصل على أبيك وكبر عليه ثلاثين تكبيرة . فأما خمس فهي الصلاة وخمس وعشرون تفضيلاً لآدم . وقيل كبر عليه أربعاً فجعل بنو شيث آدم في مغارة وجعلوا عليها حافظاً لا يقربه أحد من بني قابيل وكان الذين يأتونه ويستغفرون له من بني شيث وكان عمر آدم تسعمائة سنة وستاً وثلاثين سنة .. (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) فأما الأجل الأول فالإقامة حتى الموت وقد علم الإنسان أنه مقيم بالدنيا حتى يأتي أجل الموت أما الأجل المسمى عنده فهو لم يعلمنا الله إياه وهو أجل القيامة .. (وعنده علم الساعة) .

أما قوله تعالى في سورة الأعراف :

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون) . (١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ الأعراف) .

فهذه آية مشكلة تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها فقال قوم : إن الله تعالى أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض وأنه تعالى أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها به وفي الحديث عن النبي ﷺ غير هذين القولين وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم .. روى مالك في موطئه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال : إن الله تعالى خلق آدم ثم

مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : (خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون) . فقال رجل فقيم العمل ؟ قال فقال رسول الله ﷺ : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار) . قال أبو عمر : هذا حديث منقطع الإسناد . لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعبد الله بن مسعود وعلى بن أبي طالب وأبي هريرة رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم .

وروى الترمذى وصححه عن أبي هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال :
 (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها (من ذريته) إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل رجل منهم وبينها من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : يارب من هؤلاء قال : (هؤلاء ذريتك) فرأى رجلا منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه فقال : أى رب من هذا ؟ فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، فقال : رب كم جعلت عمره قال : ستين سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة .. قال : أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته .

وفى غير الترمذى : فحينئذ أمر بالكتاب والشهود . وروى عن عبد الله ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : (أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من

الرأس) وجعل الله لهم عقولا كاملة سليمان وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره . فأقروا بذلك والتزموه وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل فشهد بعضهم على بعض . قال أبي بن كعب وأشهد عليهم السموات السبع فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد . وقال يحيى بن سلام : قال ابن عباس في هذه الآية : أهبط الله آدم بالهند ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم قال (أأنت بريكم قالوا بلى شهدنا) قال يحيى قال الحسن : ثم أعادهم في صلب آدم عليه السلام وسمى ذلك اليوم بيوم الميثاق .

* * *

بدء الخلق في رأى علماء الفلك وطبقات الأرض :

رأينا أن علماء الشرع يظهرون من الأحاديث أن العرش هو أول المخلوقات العلوية وأن الماء هو أول المخلوقات المادية وأنه قبل العرش كما رواه أحمد والترمذى ثم خلق الله السموات والأرض أما أول المخلوقات المعنوية فهو القلم وليس هناك دليل يعول عليه في أصل الكائنات من جهة الشرع .

ويتفق علماء الفلك وطبقات الأرض مع علماء الشرع في أن الكون حدث وتطور بعد أن لم يكن ولكنهم يختلفون عنهم في بداية هذا الحدوث وتطوره . ففي حين لا يتحدث الشرع عن ذلك .. نرى (جورج جامبو) في كتاب تاريخ الأرض يقول : إن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة أما الأرض فقد نشأت حديثاً جداً ، إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين فقط وظهرت الحياة على الأرض منذ بليون سنة ، والحيوانات البرمائية منذ مائتى مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التي يعتبر الإنسان أحد فروعها فقد بدأ ظهورها على الأرض

منذ مائة وعشرين مليون سنة .
والإنسان هو أحدث الوافدين على الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ
٥٠ مليون سنة فقط .
والله أعلم بحقيقة ذلك (٦) .

(٦) العقائد الإسلامية . الشيخ سيد سابق .

ذرية آدم وأطوار خلقها

(مالكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً)

(١٣ و ١٤ نوح)

عرضنا فيما سبق لبعض ما قيل في قصة خلق آدم عليه السلام ، ورأينا كيف أن الله سبحانه خلقه ولم يكن من قبل شيئاً .. ثم خلق من ضلوعه زوجاً له وبث منها رجالاً كثيراً ونساء ..

لما هي قصة خلق ذرية آدم وما هي الأطوار التي تمر بها قصة الخلق؟
هذه بعض آيات من كتاب الله تهديننا السبيل :

- (خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم) .

(٣ التغابن)

- (ثم كان علقه فخلق فسوى) . (٣٨ القيامة)

- (خلق الإنسان من علق) . (٢ العلق)

- (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) . (٩ مريم)

- (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) .

(٣٣ الحجر)

- (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً) . (١١ فاطر)

- (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه) . (٦٧ غافر)
- (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه) . (٢ الإنسان)
- (إنا كل شيء خلقناه بقدر) . (٤٩ القمر)
- (أفرايتم ما تمنون . أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) . (٥٨ ، ٥٩ الواقعة)

- (إنا خلقناهم من طين لازب) . (١١ الصافات)
- (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ^(٧)) . (٦ الزمر)

- (فليظنر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق) . (٥ ، ٦ الطارق)
- (والله خلق كل دابة من ماء) . (٤٥ النور)
- (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . (المؤمنون)
- وقبل أن نسترسل فى شرح تلك الآيات واستجلائها نقول إن من آيات الله سبحانه أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً .. ثم هو سبحانه يخلقنا فى بطون أمهاتنا خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث .. على عدة أطوار وصور .

وتعال معى عزيزى الإنسان نقرأ القصة من بدايتها ..

« يقول العالم الأمريكى المشهور - بنكس - وهو أحد كبار علماء البيولوجيا - علم الحياة - فى العصر الحديث وهو أيضاً مخترع أقراص منع الحمل : إن السؤال القصير المكون من ثلاث كلمات : كيف يحدث الحمل ؟ هو سؤال خطير حين يعيد الإنسان النظر فيه فهو سؤال عن كيفية تجديد الحياة . وعن

(٧) البيض .. وقناة فالوب .. والرحم .

الخلود وكيفية دوام الإنسان على سطح الأرض .. وما أجهلنا نحن جميعاً عن معرفة أسرار الخلود أو طلائع الحياة .. وصحيح أن العلم الحديث قد أطاق اللثام عن كثير من أسرار الحياة لكن إجابته عن هذا السؤال هي الآن إجابة تحتاج إلى مزيد من البحث - وعلى الرغم من أن (بنكس) انكب على دراسة كيفية حدوث الحمل والعوامل المؤثرة فيه سواء قبل حدوثه أو في الأيام الأولى منه ، فإنه لما نشر نتيجة دراساته في مجلد ضخيم اعترف في نهايته اعترافاً صريحاً بأن العلم قاصر جداً عن إعطاء الجواب الشامل لهذا السؤال وإن الإنسان عليه أن يعجب أشد العجب لحدوث هذه الظاهرة المتناهية في التعقيد . ألا وهي الحمل (٨) .

ما هي الظلمات الثلاث ؟

(خلقكم من نفس واحدة) (٦/الزمر) (٩)
 (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث)
 (٦/الزمر)
 قوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة) : يعني آدم عليه السلام . ثم جعل منها زوجها) يعني ليحصل التناسل .

(٨) من مقال طبي للدكتور/أحمد التاجي الأستاذ المساعد بطب الأزهر .

نشر في مجلة طبيك الخاص - ونحن هنا نقصد عرض رأي بنكس بالذات لمغراه .

(٩) قوله تعالى في الآية ٦ من سورة الزمر :

(خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأتى تصرفون) .

قوله تعالى : (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث .) أى يخلقكم في بطون أمهاتكم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم لحماً . « قتادة والسدى في تفسير القرطبي » .

وقال ابن زيد : خلقاً من بعد خلق : خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم . وقيل في ظهر الأب ثم خلقاً في بطن الأم ثم خلقاً بعد الوضع . ذكره الماوردي .

« في ظلمات ثلاث » ظلمة البطن - وظلمة الرحم - وظلمة المشيمة - قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .

وقال ابن جبير : ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم وهذا مذهب أبي عبيدة .

المراحل الثلاث

ضعف - قوة - ضعف وشيبة

قال تعالى في الآية ٥٤ من سورة الروم :

(الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

حين يولد الإنسان فإنه يكون ضعيفاً أشد ما يكون حاجة إلى الرعاية والعناية « عامان مثلاً للرضاعة - عامان يزحف ولا يقوى على السير - عامان غير قادر على الكلام .. إلخ .. إلخ .

في حين نرى طفل أى حيوان تصنع فيه العامان الأعاجيب وضعف الإنسان

ملازم له من البداية فهو في بطن أمه جنين يتغذى عن طريق الحبل السرى ، وقد كفل الله له غذاءه بعد ولادته وقبل نزول اللبن من ثدى أمه .. ففي الأيام الأخيرة من وجود الإنسان جنيناً في بطن أمه تحتزن بعض الغدد أو بعض الخلايا أو الجيوب الداخلية في جسمه بطريقة لا نعلمها حتى الآن ، بعض الغذاء عن طريق الحبل السرى ولا تعيش عليه بل تدخره وحين يولد الطفل ويقطع الحبل السرى تنشط هذه الغدد أو الخلايا أو الجيوب فتقوم بتغذية الطفل لحين تتمكن الأم من إرضاعه ، وهى مدة تصل إلى ثمانية وأربعين ساعة .. والجنين الضعيف في بطن أمه يسبح في سائل يحميه في حركته من أى صدمة أو احتكاك .. وهذا السائل شمعى يحفظ على جسمه الحرارة بديلاً عن الملابس كذلك فإن الجهاز التنفسى لدى الطفل يكون غاية في ضعفه فالرئتان كقطعتي إسفنج رخوتان فلا بد من وقاية الطفل من أى تيارات حارة أو باردة قد تودى به - وبمخضرننا فى ذلك - أن السيارة إذا كانت جديدة فإنك لا تستطيع السير بها إلا فى حدود سرعة معينة لمسافة معينة بعدها تقوم بتغيير الزيت وتصيح السيارة صالحة للعمل بكامل طاقتها - كذا الإنسان يبدأ ضعيفاً حتى إذا دخل مرحلة الصبا رأيت يتردى قيصاً واحداً شمر عن أكمامه وفتح أزراره دون أن يبالي بالطقس حاراً كان أو بارداً .. وبعدها تأتى مرحلة يلزمك فيها مصاحبته صديقاً فالرسول ﷺ يعلمنا ذلك فيقول : « لآعب ولدك سبعاً - وأدبه سبعاً - وصاحبه سبعاً .. لكن هذا الشاب المفتول العضلات تراه إذا تجاوز الأربعين أو الخمسين وقد بدأ الشيب يغزو شعره الفاحم السواد وقد بدأ التعب يعرف الطريق إليه وزارته الأمراض والعلل ثم إذا هو يستعين للسير بالعصا وللقراءة بالعدسات وللهمضم بالأدوية .. وهكذا تنصرم الأيام حتى تقوده فى نهاية حياته إلى المقر الأخير .. فسبحان الخالق القوى المتين الذى يرينا الآيات ويضرب لنا الأمثال لعلنا

تفكر وتندبر ، فالإنسان كالنبات يبدأ ضعيفاً ثم يشب ويثمر ثم يهيج فتراه مصفراً .. وهذه الحلقات الثلاث بذاتها نراها تتكرر في الكثير من المخلوقات .. ولكنها تبدو أكثر ما تكون وضوحاً لنا في ذلك المخلوق المسمى بالإنسان .

خلق الإنسان

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة العلق :

(اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .) (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ العلق) .

في هذه الآية يخص الله سبحانه الإنسان بالذكر من دون الخلق^(١) وهو لا يخصه بالذكر لأن خلقه أكبر فقد قرر سبحانه أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إنما يخصه بالذكر لأن التتريل إليه كما يقول المفسرون ، فالمناسبة تقتضى أن يذكر الإنسان دون سائر الخلق ، فما نزلت الآيات إلا لتدعو الإنسان إلى عبادة ربه ببيان تفرد بالعبادة وحده ، وأول ما يجذب الإنسان إلى عبادة ربه أن يعلم أنه من خلقه خلقه خلقاً وأنشأه إنشاءً ، ولم يك شيئاً قبل أن تمتد إليه يد الله بالخلق والإنشاء .

ولو خص سبحانه من خلقه ما تقوم حياة الإنسان عليه كالأرض التي يعيش عليها أو كالشمس التي لا غنى له عنها لما كان لذلك من الأثر في نفسه أو من

(١٠) من كتاب بحوث في تفسير القرآن .. سورة العلق .. م. جمال الدين عياد

(١٣٨٠هـ / ١٩٦١م) .

الدلالة على فضل الله عليه ما لخلق الله له وإنشائه من علق ، فخلق الإنسان وإن كان أقل دلالة على قدرة الله تعالى من خلق السموات والأرض فهو أعظم دلالة على عظيم فضله وموفور نعمه على الإنسان ، وبيان فضل الله على العباد أدفع للعبادة من بيان قدرته الفائقة ، فالعبادة شكر للنعمة واعتراف بالفضل وتقدير للجميل ، ومن ثم كان ذكر الإنسان وبيان خلق الله له أنسب للوقت وأصلح للمناسبة ، مناسبة الدعوة إلى عبادة الرب تعالى ببيان جدارته بالعبادة وحده .

الخلق من علق من أى شىء خلقه ؟

النطفة أول أطوار الجنين :

بينما يقرر سبحانه وتعالى فى سورة العلق أنه خلق الإنسان من علق يقرر فى آيات أخرى من القرآن أنه خلق الإنسان من نطفة ، إذ يقول تعالى : (من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره) ويقول : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) وواضح من هذه الآيات أن النطفة أول أطوار الجنين وأن العلقة تالية لها وهى حقيقة أشرنا إليها فى هذا المقام ، لأنه قد يتبادر إلى الأذهان من قوله تعالى : (خلق الإنسان من علق) أن العلقة أول أطوار الجنين ، من ذلك قول ابن كثير فى هذه الآية التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علق ، وهذا ما نحب أن نفيه فالنطفة سابقة للعلق كما قرر سبحانه فى غير آية من كتابه .

وقد يتساءل القارئ الآن لماذا قرر سبحانه أنه خلق الإنسان من علق مع أن النطفة أول أطوار الجنين . لماذا رد سبحانه الإنسان إلى العلقة دون النطفة ؟

وجواب هذا السؤال يتضح إذا علمنا الغاية التي يهدف إليها سبحانه من هذه الآية فالقصد كما سنبيّن بعد - هو بيان قدرة الله الفائقة وعظيم فضله . وهي غاية تتحقق إذا رد سبحانه الإنسان إلى العلق كما تتحقق إذا رده إلى النطفة ، فالفرق بينهما ليس بشيء بالنسبة للإنسان الذي ينتهى إليه أمرهما بقدره الله وإرادته ، بحيث يكون خلق الإنسان دليلاً على قدرة الله الفائقة سواء في ذلك أن يقول خلق الإنسان من علق أو يقول خلق الإنسان من نطفة ، فالذي يخلق الإنسان من علق لن يعجز عن خلقه من نطفة .

ومثل ذلك كمثال المسافة بين سطح الأرض وقمة الجبل فهي ليست بشيء إلى جانب المسافة بين الأرض والقمر مثلاً ، بحيث يكون إطلاق الصاروخ إلى القمر دليلاً على التقدم العظيم الذي أحرزه الإنسان في ميدان العلم ، سواء في ذلك أطلقه من قمة الجبل أو من سطح الأرض مباشرة ، فالذي يطلق الصاروخ إلى القمر من قمة الجبل لن يعجز عن إطلاقه من سطح الأرض .

سيان إذن أن يرد سبحانه الإنسان إلى العلق أو يرده إلى النطفة مادام القصد بيان قدرته الفائقة وعظيم فضله فهي غاية تتحقق برد الإنسان إلى أى منها ، كما يتحقق الأصل العربى أو القرشى للرسول برده - عليه السلام - إلى جده عبد المطلب أو إلى جده عبد مناف فكلا الجدّين عربى قرشى .

فإلغاية التي يهدف إليها سبحانه من هذه الآية تتحقق بذكر العلق كما تتحقق بذكر النطفة بحيث يكون المعنى صحيحاً بذكر أى منها ، لكن اختيار العلق دون النطفة لا بد أن يقوم على أساس فنى أو لفظى .

وقد اختار سبحانه العلق ليكتمل التناسق الفنى والموسيقى اللفظية في مطلع السورة : « خلق » و « علق » فاصلتان متحدتان في الوزن والقافية وفي حرفين من ثلاثة حروف فلا يختلفان إلا في حرف واحد وبهذا التقارب عبر سبحانه عن

المعنى المراد بلفظ جميل يطرب الأذن برنينه الموسيقى .
والقصد كما قال الإمام أبو عبد الله الخطيب - هو التوفيق بين الألفاظ في
أصواتها وموسيقاها مع صحة المعاني وإلى هذا الرأي يذهب أبو السعود في
تفسيره .

الإِنسان بين أصله المباشر وأصله البعيد:

التراب أصل الإنسان البعيد :

ومن الملاحظات الجديرة بالتعليق في هذا المقام ما قرره سبحانه من أنه خلق
الإِنسان من طين أو من تراب باعتبار التراب أصل الطين أو من صلصال باعتبار
الصلصال صورة من الطين .

إذ يقول تعالى في سورة السجدة : (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق
الإِنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)
(٧ ، ٨ السجدة) .

ويقول في سورة فاطر : (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة) ويقول في
سورة الرحمن : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) .

وواضح أن هذه الآيات وأمثالها من كتاب الله تتحدث عن خلق الإنسان
الأول الذي لم يضمه رحم أو تحمله أنثى ، يؤكد ذلك قوله تعالى في سورة
ص : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت
فيه من روحي فقعوا له ساجدين) .

فالبشر المقصود في هذه الآية هو آدم عليه السلام إذ أمرت الملائكة أن
تسجد له ولم تؤمر أن تسجد لغيره من الناس .

والآيات التي تقرر خلق الناس من تراب إنما تقرر ذلك باعتبار أن جدهم
الأول آدم عليه السلام مخلوق من تراب ، أما الأصل المباشر لبني آدم فليس هو

التراب وإنما هو الماء المهيّن أو النطفة ، الأمشاج أو البويضة الملقحة بلغة العلم في العصر الحديث .

والأحاديث التي استشهدنا بها على خلق الإنسان من طين تشير إلى أن المقصود بالإنسان هو الإنسان الأول وأن سلالة أو نسله هم الذين خلقوا من الماء المهيّن ، فذلك أصلهم المباشر والتراب أو الطين أصلهم البعيد .

ورد الإنسان بالمفرد والعلق بالجمع :

ومما يلفت النظر في الآية أيضاً ورود الإنسان بالمفرد والعلق بالجمع فالعلق جمع علقه ، وإنما قال من علق على الجمع لأن الإنسان في معنى الجمع كما يقول المفسرون ، فالإنسان في قوله تعالى : (خلق الإنسان من علق) هو الإنسان في قوله تعالى : (علم الإنسان ما لم يعلم) وفي قوله (إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لم يقصد به تعالى إنساناً بعينه وإنما قصد الإنس جميعاً فكلهم خلق من علق .

معنى العلق :

العلق كما قدمنا جمع علقه ، وقد ذهب المفسرون على اختلافهم قديمهم وحديثهم إلى أن العلق هو الدم الجامد ونقلت عنهم الترجمات الإنكليزية للقرآن هذا التفسير فجعلت الكلمة الإنكليزية clot ترجمة للعلق في هذه الآية والاسم المشتق منها وهي كلمة تعنى الدم الجامد الذي فسر به المفسرون عندنا بالعلقة .

تفسير العلقه بالدم الجامد يتعارض مع علم الأجنة .

وتفسير العلقه بالدم الجامد تسمح به اللغة ولا يسمح به الطب أو علم الأجنة خاصة ، فإذا استشرت قاموساً من قواميس اللغة على اختلافها وجدت الدم

الغليظ أو الجامد من معاني العلقة ولكن الحقائق الثابتة في علم الأجنة لا يمكن أن تفسر العلقة بالدم الجامد أبدًا . فالعلقة كما قرر القرآن في آيات أخرى هي طور من أطوار الجنين يعقب النطفة أو البويضة الملقحة ويسبق المضغة فهي ثاني أطوار الجنين . والثابت أن الطور الذي يعقب تلقيح البويضة يتصف أول ما يتصف بظاهرة الانقسام cleavage

العلقة في ضوء علم الأجنة :

ولئن كنا نفتقد المعلومات عن انقسام البويضة الإنسانية فإن انقسام البويضة في الثدييات عامة وفي فصيلة من فصائل القرود قريبة الشبه بالإنسان خاصة قد كشف لنا الكثير عما يرجح حدوثه في الإنسان .

انقسام البويضة الملقحة :

فمن دراسة لويس وهارتمان (١٩٣٣) لفصيلة *Macacus rehesus* - وهي فصيلة من القرود كبيرة الشبه بالإنسان - يتبين لنا - كما هو واضح من شكل (١) . أن البويضة الملقحة تنقسم إلى خليتين خلال أربع وعشرين ساعة من وقت انطلاق البويضة من المبيض ovulation ثم إلى ثلاث فأربع ثم خمس فست فسيح فثان ، ويستمر الانقسام كذلك حتى تصبح البويضة الملقحة حول الساعة السادسة والتسعين مركبة من ستة عشر خلية ويطلق عليها في هذه المرحلة من مراحل النمو اسم التوتة morula لما بينها كتكتلة من الخلايا المترابطة بعضها فوق بعض وبين ثمرة التوت من شبه .

وصول الجنين إلى فراغ الرحم :

وعند هذه المرحلة يكون الجنين قد وصل إلى فراغ الرحم في شكل مجموعة من الخلايا المركزية inner cell mass محاطة تماماً بدائرة من الخلايا سيطلق عليها فيما بعد اسم التروفوبلاست Trophoblast ويحيط بهذه الدائرة غشاء يطلق عليه زونا بلوسيدا zona pellucida وهو الغشاء الذى كان يحيط بالبويضة أصلاً . وبعد وصول التوتة morula إلى الرحم تمر بتغيرات تنقلها إلى طور جديد . إذ أن سائلا من فراغ الرحم ينفذ إلى الجنين من خلال الغشاء المعروف بالزونا بلوسيدا والخلايا الخارجية التى سيطلق عليها اسم التروفوبلاست ، ويملاً السائل النافذ من الرحم الفراغات الموجودة بين خلايا الجنين المركزية والخلايا الخارجية ، وبازدياد كمية السائل النافذة من الرحم إلى الجنين تتكون فى الجنين فجوة cavity تسمى البلاستوسيل blastocoele وتزاح مجموعة الخلايا المركزية إلى جانب من الجوانب فتلتصق بالجدار الداخلى للخلايا الخارجية التى تنضم إذ ذاك وتسمى التروفوبلاست ، وفى هذه المرحلة يسمى الجنين بلاستوسيت blastocyst.

وفى هذا الوقت على وجه التقريب يختفى الغشاء الذى كان يحيط بالبويضة أصلاً والذى عرفناه باسم زونا بلوسيدا . ليسمح للخلايا التروفوبلاست بالالتصاق بجدار الرحم بعد أن كان الجنين يتحرك بحرية فى قراره المكين ، ويحدث التصاق الجنين هذا أو غوصه فى جدار الرحم فى منتصف اليوم الثامن من عمر الجنين على وجه التقريب ، فأصغر ما اكتشف من أجنة البشر وجد فى اليوم الثامن من عمره فى أول عهده بمرحلة الغوص فى جدار الرحم . وتنقسم مجموعة الخلايا المركزية إلى طبقتين طبقة سميكة علوية (اكتورم)

وطبقة رقيقة سفلية (اندودرم) وتتكون فجوة وحويصلة (فجوة الأمينون) والحويصلة الصفراوية ، وتتكون فيما بعد طبقة ثالثة من الخلايا هي طبقة الميزودرم ، ومن هذه الطبقات الثلاث التي تميزت (الاكتودرم والأبندودرم والميزودرم) سوف تتكون فيما بعد أعضاء الإنسان المختلفة ، فتنشأ من كل طبقة مجموعة معينة لأعضاء الجنين ، وتم تغذية الجنين في أول الأمر بطريقة الانتشار العشائلى :

ثم لا يلبث أن يتكون في اليوم العشرين من حياة الجنين جهاز دورى بسيط .

أطوار الجنين :

ويعتبر بعض علماء الأجنة الفترة السابقة لتكوين الجهاز الدورى البسيط الذى أشرنا إليه آنفاً والتي تبلغ غايتها بغوص الجنين فى جدار الرحم ، وتستنفد الأسابيع الثلاثة الأولى من حياة الجنين على وجه التقريب يعتبرونها المرحلة الأولى من مراحل نمو الجنين .

والمرحلة التالية لها تبدأ ببداية الأسبوع الرابع تقريباً وتنتهى بنهاية الأسبوع الثامن وتتميز هذه المرحلة بالنمو السريع والتميز الذى تتكون به جميع الأجهزة والأعضاء الأساسية للجسم وتتنضح به الملامح الرئيسية .

والمرحلة الأخيرة تمتد من نهاية الأسبوع الثامن إلى المولد وتتميز هذه الفترة بسرعة النمو المذهلة أكثر مما تتميز بتخلق الأعضاء والأجهزة المختلفة .

على أن هذه التقسيمات لا تعنى بحال أن كل مرحلة قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى ، إذ أن هذه المراحل يتصل بعضها ببعض ويؤدى بعضها إلى بعض .

* * *

ومن هذا العرض الموجز لأطوار الجنين يتبين لنا أن ما سماه القرآن بالمضغة لا بد أن يقابل المرحلة الثانية من المراحل الثلاثة التي ذكرناها آنفاً ، وهي المرحلة التي يتخلق فيها الجنين أو تتكون أجهزته وأعضاؤه ، ذلك أن المضغة قد وصفها القرآن بأنها مخلقة وغير مخلقة ، فهى الطور الذى يتخلق فيه الجنين فتتكون أعضاؤه وأجهزته المختلفة ، أولاً يتخلق كالسقط الذى قد يحدث من شذوذ فى نمو الجنين كأن يفوص فى غير المكان الطبيعى من جدار الرحم فلا يتخلق ويموت وتنزف الأم نزيفاً شديداً ، وهذه الحالات الأخيرة حالات شاذة يبلغ فيها الجنين مرحلة التخلق ولا يتخلق أولاً يكتمل تخلقه فيولد ناقصاً غريب الخلقه .

النفطة والعلقة تقابلان الطور الأول :

وحيث إن النفطة والعلقة سابقتان للمضغة كما قرر القرآن ، فلا بد أن تكونا مقابلتين للمرحلة الأولى من المراحل الثلاثة التي ذكرناها آنفاً والتي تبلغ غايتها بفوص الجنين فى جدار الرحم ، وتستنفد الأسابيع الثلاثة الأولى من حياة الجنين على وجه التقريب .

تركيب العلقه :

وواضح أن الجنين فى هذا الطور الذى سماه القرآن علقه ليس من الدم الجامد فى شىء كما ذهب المفسرون وإنما هو مجموعة من الخلايا تميزت إلى صفتين علوى وسفلى (اکتودرم وأنودودرم) بالإضافة إلى فجوة الأميون والحويصلة الصفراوية وتركيب الخلايا التي تكون العلقه مختلفة تمام الاختلاف عن تركيب الدم الجامد ، فهى خلايا نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة التي تمثل

الخلية الإنسانية الأولى ، والبويضة الملقحة وما نشأ عنها من خلايا تتركب من نواة وستيوبلازم بصفة أساسية .

تركيب الدم السائل :

أما الدم السائل فيتكون من سائل أصفر اللون باهت يعرف بالبلازما تسعة أعشاره ماء وعشره مواد غذائية مهضومة ، بالإضافة إلى كميات قليلة من مخلفات عضوية .

وهذا السائل المعروف بالبلازما يحوى عددًا كبيرًا من خلايا دقيقة تعرف بالكرات الدموية الحمراء ، وهى خلايا تلاشت أنويتها واحتوى سيتوبلازمها على مركب أزرقى يحتوى على الحديد يعرف بالهيموجلوبين ، ويعزى إليه لون الدم الأحمر ، وتنتشر هذه الخلايا بكثرة فى دم الإنسان بدرجة أن المليمتر المكعب الواحد من الدم يحوى خمسة ملايين من هذه الكرات .

وبالإضافة إلى هذه الكرات الحمر تحوى البلازما عددًا آخر من الكرات البيض وهى خلايا مجهرية ذات نواة وشكل بعضها متغير باستمرار ، إذ تخرج منها زوائد تتحرك بواسطتها جميعًا كما تفعل الأميبا ، وهى توجد فى الدم بنسبة أقل من الكرات الحمر ، إذ يقابل كل خمس مئات من الكرات الحمر كرة واحدة بيضاء تقريبًا .

والدم الجامد يتكون من خيوط دقيقة جدًا تسمى خيوط الفبرين ، كانت فى الأصل مادة بروتينية ذائبة فى الدم ثم تحولت نتيجة لعمليات كيميائية إلى هذه الخيوط التى تحصر بينها فى شكل شبكة - الكرات الدموية السابقة الذكر وعدداً كبيراً من الصفائح الدموية المتهدمة .

وبواضح من الوصف الذى قدمناه للدم السائل والدم الجامد أن الجنين فى

المرحلة التي سماها القرآن بالعلقة ليس من الدم الجامد أو السائل في شيء بل إن الجنين حتى الأيام الأخيرة من طور العلقمة لم يكن يحوى خلايا دموية على الإطلاق فالراجح أن الخلايا الدموية لا تتكون طلائعها إلا حول اليوم الثامن عشر من حياة الجنين .

ومن أجل هذا نرفض ما ذهب إليه المفسرون من أن العلقمة ، دم جامد ونرفض ترجمة العلقمة بالكلمة الانجليزية clot التي تقابل الدم الجامد في العربية وحجتنا في هذا الرفض تعارض هذا التفسير مع المفهوم الطبي لما يقابل العلقمة من مراحل نمو الجنين .

العلقمة في رأينا :

والعلقمة - في رأينا - هي ما يعلق بالشيء ويتشبث به وهو تفسير تسمح به اللغة ويسمح به علم الأجنة في وقت واحد .

فاللغة لم تجعل العلقمة وقفاً على الدم الجامد بل جعلت من معانيها العلق والتشبث الذي أشرنا إليه آنفاً ، يقال علق الصيد في الحباله ، وعلق الصائد إذا علق الصيد في حبالته ، وعلق دم فلان بزيد إذا كان زيد قاتله ، وأعلق ظفره بالشيء إذا أنشبهه ، وعلق الشوك بالثوب وتعلق به إذا نشب به واستمسك ، ومن معاني إعلق شيء أسود يشبه الدود يكون بالماء ، فإذا أشرته الدابة يعلق بحلقها ، والواحدة علقمة ، ومنه قولهم كل بيع أبقى علقمة أى شيئاً يتعلق به البائع - فهو باطل .

وكذلك تسمح الحقائق الثابتة في علم الأجنة بتفسير العلق بما يتشبث ويستمسك بشيء آخر ، فكما قدمنا في العرض الموجز لأطوار الجنين تمكث البويضة الملقحة حرة في فراغ الرحم حتى منتصف اليوم الثامن على وجه

التقريب ، وإذ ذلك تعلق بجدار الرحم ثم تغوص فيه ، وتسمى كتب الأجنة هذا العلوق والغوص باسم خاص وتجعله طوراً من أطوار النمو ، ومن ثم فالعلقة عندنا هي هذا الطور الذى يعلق فيه الجنين بجدار الرحم ثم يغوص فيه ، ويبدأ هذا العلوق - كما قدمنا - فى منتصف اليوم الثامن ثم يبدأ الغوص فى جدار الرحم ويستمر حتى يبلغ الغاية قبيل اليوم العشرين ، وبهذا ينتهى طور العلقه ويبدأ طور المضغطة ، الذى يستمر حتى اليوم الستين من عمر الجنين .

العلقه فى الحديث :

والباحث فى معنى العلقه عندما يصل إلى هذه المرحلة من البحث يستوقفه حديث وارد فى الصحيح فيه ما يخالف ما انتهينا إليه ، فلقد روى مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغطة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ... إلخ .

ومدلول هذا الحديث أن مرحلة العلقه تبدأ من اليوم الأربعين من حياة الجنين وتستمر حتى اليوم الثمانين ، وأن مرحلة المضغطة تبدأ من اليوم الثمانين وتستمر حتى اليوم العشرين بعد المائة ، وهذا يخالف ما انتهى إليه البحث فيما قدمناه إذ قلنا إن مرحلة العلقه تبدأ فى اليوم الثامن وتنتهى قبيل اليوم العشرين وأن مرحلة المضغطة تبدأ فى اليوم العشرين وتنتهى فى اليوم الستين .

غير أن القارئ لباب القدر الذى تضمن هذا الحديث سوف يجد المخرج من هذا الإشكال ، فثمة أحاديث أخرى عرضت لهذا الموضوع تخالف الحديث الذى قدمناه فى المتن والسند ، من هذه الأحاديث ما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها

ملكا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يارب
أذكر أم أنى؟ فبفضى ربك ما يشاء ويكتب الملك». ومؤدى هذه الرواية أن
مرحلة المضغة التي يكون فيها التخلق تبدأ من الليلة الثانية والأربعين لا من
اليوم الثمانين كما تقول الرواية الأولى التي أبارت الإستكمال.

وقد تنبه النوى في شرحه لصحيح مسلم إلى هذا الاختلاف أو التناقض بين
الروايات ، وحاول أن يبرره بما قاله القاضى وغيره من أن القول فى الرواية
الأخيرة ليس على ظاهره ولا يصح أن يحمل على ظاهره ، وأن المراد من
تصويرها وخلق سمعها إلى آخره - فيما يرون - أن الملك يكتب ذلك ثم يفعله فى
وقت آخر. وقد استندوا فى رأيهم هذا إلى أن التصوير عقب الأربعين الأولى غير
موجود فى العادة وإنما يقع فى الأربعين الثالثة وهى مدة المضغة .

وهو فهم قدمنا خطأه بما هو ثابت فى علم الأجنة من أن الطور الذى يتميز
بالتخلق من أطوار الجنين إنما يقع بين اليوم العشرين والستين ، فالتخلق إذن لا
يبدأ فى اليوم الثمانين أو فى الأربعين الثالثة كما قالوا ، وإنما يبدأ منذ اليوم
العشرين ولا يكاد يبلغ الجنين اليوم الستين من حياته على وجه التقريب حتى
تكون أجهزته الرئيسية قد تكونت طلائعها واكتسب الملامح الرئيسية التى تميزه
كإنسان بعد أن كان لا يختلف عن أجنة الحيوانات الأخرى فى كثير.

ونحن لا نذكر هذا لنلوم شراح الحديث على فهمهم هذا ، فلم يكن علم
الأجنة قد تقدم أيامهم بالدرجة التى تكشف عن هذه الحقائق ، وإنما ذكرناه
لنبين أن القول فى الرواية الثانية للحديث لا يجوز أن يحمل على غير ظاهره لما فى
ذلك من تعارض مع الحقائق الثابتة فى علم الأجنة وإن حمله على الظاهر يجعله
أقرب إلى هذه الحقائق إذ يفيد أن التخلق يكون فى الليلة الثانية والأربعين ،

أى فى الليلة الوسط مرحلة المضغة على وجه التقريب إذ جعل العلم بدايتها فى اليوم العشرين ونهايتها فى اليوم الستين كما قدمنا القول .
والحديثان - اللذان وجدنا بينهما ما قدمنا من تعارض - من أحاديث الآحاد التى تفيد الظن ولا تفيد القطع واليقين .

والموقف الذى يتخذه علماء الحديث أو علم مصطلح الحديث فى هذا الصدد يتركز فى خطوات ثلاث :

أولاً : محاولة التوفيق بين الحديثين المتعارضين ، فإذا أمكن الجمع بينها فإننا نصير إليه .

ثانياً : وإذا لم يمكن الجمع حاولنا الترجيح فإذا استطعنا ترجيح حديث على آخر لسبب معقول أخذنا بالراجح وتركنا المرجوح .

ثالثاً : وإذا تعذر الترجيح أمسكنا عن القول وتوقفنا عن الأخذ بالحديثين معاً واعتبرناهما كأن لم يكونا مفوضين الأمر إلى الله عز وجل .

وفىما يتعلق بالتوفيق بين الحديثين لا نجد ما يعيننا عليه ، فالتعارض بينهما واضح وحمل الحديث الثانى على غير ظاهره لا يجوز كما قدمنا القول .

وفىما يتعلق بالترجيح نجد من اليسير علينا أن نرجح الحديث الثانى لما قدمناه من أنه أقرب إلى الحقائق الثابتة فى علم الأجنة فهودى هذا الحديث أن الله يبعث

الملك ليصور الجنين فى الليلة الثانية والأربعين ، وهى الليلة الوسط من مرحلة المضغة التى يجعل العلم بدايتها فى اليوم العشرين ونهايتها فى اليوم الستين ،

والحديث لا يفيد أن بداية التخلق فى الليلة الثانية والأربعين إنما يفيد أن الملك يصور السمع والبصر .. إلخ فى هذه الليلة ، وقد يعنى هذا أن الشكل الخارجى

للعين والأذن يتضح فى هذا الوقت وأن بداية التخلق تكون قبل ذلك ولعلها فى اليوم العشرين كما رجح العلم .

وقد قدمت لنا كتب الأجنة صوراً للمضغة في مراحل التخلق المختلفة وجعلت أمام كل صورة عمر الجنين على وجه التقريب .. والصورة التي تصور الجنين في اليوم الثالث والأربعين من عمره أى في الوقت الذي حدده الحديث الراجح عندنا تقريباً يتضح فيها الشكل الخارجى للعين والأذن واليد والقدم ، بعد أن كانت غير ظاهرة تماماً فيما سبق من أطوار ، وفيها يفترق الجنين من الشكل الإنسانى ، ولعل الحديث يشير إلى هذه المرحلة من النمو الجنينى دون أن ينكر مراحل التخلق السابقة التى انتهت بالجنين إلى هذا الطور . أو لعله يشير إلى مرحلة أخرى لاحقة لهذه المرحلة من مراحل التخلق ، فالصورة التى سجلتها كتب الأجنة وقدرت عمر الجنين فيها بسبعة وأربعين يوماً على وجه التقريب يزداد فيها اقتراب الجنين من الشكل الإنسانى وتتضح ملامحه الرئيسية بشكل ملحوظ ، وتقديرهم لعمر الجنين فيها بسبعة وأربعين يوماً إنما هو تقدير على وجه التقريب لا التحديد ، وقد يكون عمره فى الحقيقة اثنين وأربعين يوماً أو ما يقرب من ذلك كما أشار الحديث .

ومن هذا الذى قدمناه يتبين لنا أن الحديث الثانى هو الراجح عندنا لأنه يتفق مع ما انتهى إليه علم الأجنة فى هذا الشأن .
 وإذا لم يرتض القارئ ترجيحنا هذا فهو فى حل من أن يتوقف عن الأخذ بالحديثين معاً ويعتبرهما كأن لم يكونا ويقف بالبحث عند النتيجة التى انتهينا إليها .

الحكمة فى ذكر الخلق من علق :

والخلق من علق كما أشرنا فى عنوان هذا الفصل - دليل قدرة الله القائمة وعظيم فضله . وقدرة الله سبحانه تتضح من هذه النقلة المذهلة التى جعلت من

العلق إنساناً وعلى قدر إدراكنا لهذه النقلة يكون إدراكنا للقدرة الإلهية :
١ - فالعلقة - عندما تعلق بجدار الرحم وتتهيأ للغوص فيه لم يكن يزيد طولها عن جزء من المليمتر فإذا جاءت ساعة المولد بلغ طول الوليد خمس مئآت من المليمترات ، ومعنى هذا أن العلق قد أصبح طولها مثل ما كانت عليه مئآت المرات .

٢ - والعلقة التي يبلغ طولها نصف « مليمتر » لا يمكن أن تقول إنها ترن شيئاً فإذا جاءت ساعة المولد أصبحت طفلاً يزن ٣٢٥٠ جراماً أو سبعة أرطال على وجه التقريب ، وهي نقلة رائعة لا يمكن أن تصورها الأرقام .

٣ - والعلقة ، بعد هذا غير مخلقة على الإطلاق فهي خالية تماماً من الأعضاء والأجهزة المميزة للجسم الإنساني ، فإذا جاءت ساعة المولد أصبحت طفلاً تام التخلق له ما نعرف من أعضاء الجسم الإنساني وأجهزته المختلفة ، ولا يلبث الطفل أن ينضج عقله ويعلمه الله ما لم يكن يعلم ، فيبعث الطيارة إلى أعلى السحاب ويرسل الغواصة إلى أعماق المحيط ويطلق الصاروخ إلى سطح القمر وهو الذي كان في أرحام الأمهات علقمة لا يبلغ طولها المليمتر الواحد ولا ترن شيئاً أو تعقل أمراً .

وبرغم ما وصل إليه العلم في عصرنا الحاضر من تقدم مذهل لا يزال تخلق الأجنة أمراً مذهلاً محيراً للعلماء لا يستطيعون تفسيره أو تعليقه ، ولا يزال السؤال قائماً : كيف تميزت الخلية الإنسانية الأولى إلى خلايا الأعصاب والعظام والعضلات وغيرها ؟ .

ولقد حاول بعض العلماء حل المشكلة ولكن محاولتهم - فيما نرى تركت المشكلة دون حل ، من ذلك قول وودورث Woodworth وماركيس : Marquis

(أن الأصل الوراثى لخلايا الجسم المتعددة واحد ، فكلمها نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة ، ومن ثم فإن التميز إلى خلايا الأعصاب والعظام والعضلات لا بد أن يكون من أثر البيئة وحدها) .

(والبيئة التى توجد فيها الخلية من خلايا الجنين غير البيئة التى يوجد فيها الجنين ككل ، فبيئة الجنين هى الرحم بما فيه من غذاء ودفء ، وبيئة الخلية الواحدة من خلايا الجنين هى مجموعة الخلايا المحيطة بها) .

(وعندما يأخذ بعض التميز فى الظهور تحاط الخلية فى جزء ما من الجسم بمجموعة من الخلايا تختلف عن مجموعة الخلايا التى تحيط بخلية أخرى فى جزء آخر من الجسم) .

(وهكذا تختلف بيئة الخلية فى هذا الجزء عن بيئة الخلية فى ذاك الجزء من الجسم ، وينشأ عن اختلاف البيئتين تميز هذه الخلية إلى خلية أعصاب مثلا وتميز تلك إلى خلية عظام أو عضلات .. إلخ) .

وواضح - كما قدمنا - أن هذه المحاولة تركت المشكلة - التى أريد حلها - قائمة تنتظر الحل ، فلقد دار صاحبها فى حلقة مفرغة : قال : إن تميز الخلايا يرجع إلى اختلاف بيئاتها واختلاف بيئاتها يرجع إلى تميزها .

وهذا ظاهر مما بين الأقواس مما نقلناه عنها، فلقد قالوا وعندما يأخذ بعض التميز فى الظهور.. دون أن يبينوا كيف يبدأ هذا التميز فى الظهور، أو يذكروا أن هذا التميز هو المشكلة التى حاولوا حلها، وهكذا دارا - كما قلنا - فى حلقة مفرغة تبدأ بالمشكلة دون حل، وتنتهى بها دون حل أيضاً.

ولئن دل خلق الإنسان من علق على قدرة الله الفاتحة فإنه يدل كذلك على فضله العظيم ، فالخلق من أكبر النعم لا ريب . لم يكن الإنسان قبل شيئاً فأصبح

به شيئاً ، وأى شيء ، وقد قدمنا القول في أن ذكر الخلق في الدفعة الأولى من القرآن متصل تماماً بالمناسبة التي نزلت من أجلها الآيات .

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) . (٢ / الإنسان)

الإنسان : أى ابن آدم من غير خلاف . من نطفة : أى من ماء يقطر وهو المنى ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة يقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه :
ما لى أراك تكرمين الجنة هل أنت إلا نطفة فى شنة
[الشنة : القربة]

وجمعها نطف ونطاف . أمشاج : أخلاط . ويقال مشجت هذا بهذا أى خلطته فهو ممشوج ومشيج مثل مخلوط وخليط^(١١) وقال المبرد : اختلاط النطفة بالدم . وقال الفراء : أمشاج : أخلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة ، ويقال للشىء من هذا إذا خلط مشيج كقولك خليط ومشوج كقولك مخلوط . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : الأمشاج : الحمرة فى البياض والبياض فى الحمرة . وهذا قول يختاره الكثير من أهل اللغة .

وعن ابن عباس^(١٢) أيضاً قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منها الولد ، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة . وقد روى هذا

(١١) القرطبي ص ٦٩١١ تفسير سورة الإنسان . ط دار الشعب - القاهرة .

(١٢) فى حاشية الجبل نقلا عن القرطبي والمعنى : ومن نطفة قد اختلط فيها الماء وكل منها يختلف الأجزاء متباين الأوصاف فى الرقة والتخن والقوام والخواص تجتمع من الأخلاط وهى العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأبها علا كان الشبه له .

مرفوعاً ذكره البزار. وروى عن ابن مسعود : أمشاجها : عروق المضغة .
وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لوانان . وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء
وحمرها ونطفة المرأة خضراء وصفراء . وقال ابن عباس : خلق من ألوان . خلق
من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهى نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم
لحم ونحوه . قال قتادة : هى أطوار الخلق ، طور علقة ، وطور نطفة ، وطور
عظاماً ، ثم يكسو العظام لحماً ، كما قال فى سورة المؤمنين : (ولقد خلقنا
الإنسان من سلاله من طين .) الآية .

وقال ابن السكيت : الأمشاج : الأخلط ، لأنها ممتزجة من أنواع ،
فخلق الإنسان منها ذاً طبائع مختلفة ، وقال أهل المعانى : الأمشاج ما جمع وهو
فى معنى الواحد ، لأنه نعت للنطفة ، وروى عن أبى أيوب الأنصارى : قال :
جاء حبر من اليهود إلى النبى ﷺ فقال : أخبرنى عن ماء الرجل وماء المرأة
فقال : « ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق ، فإذا علا ماء المرأة
آنتت ، وإذا علا ماء الرجل أذكرت . » فقال الحبر : أشهد أن لا إله إلا الله
وأنتك رسول الله .

ويقول أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي : فى الجامع لأحكام
القرآن .. يقول الفراء والأخفش (الماء الدافق) الذى خلق منه الإنسان هو الماء
(المنى) المصبوب فى الرحم ، أما الزجاج فيقول من ماء ذى اندفاق وهو ماء ان
ماء الرجل وماء المرأة لكن جعلها ماء واحداً لامتزاجها (نطفة أمشاج) وعن
عكرمة عن ابن عباس : (دافق) لزج .. (من بين الصلب) : الظهر - ظهر
الرجل - (والترائب) : الصدر - موضع القلادة من صدر المرأة .. بين
ثديها . وعن ابن جبير عن ابن عباس : الترائب أربعة أضلاع من يمين الصدر
وأربعة أضلاع من يسرة الصدر .. وقال معمر بن أبى حبيبة المدنى : الترائب

عصارة القلب ومنها يكون الولد ، والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصدر والنحر.. والتربية واحدة التراثب .

وفي التفسير: (١٣) يخلق من ماء الرجل الذى يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللحم والدم، وقاله الأعمش. وفي سورة الحجرات : (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وقيل : إن ماء الرجل يتزل من الدماغ ثم يجمع في الأنثيين . وهذا لا يعارض قوله : (من بين الصلب) لأنه إن نزل من الدماغ فإنما يمر بين الصلب والترائب . وقال الحسن : المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ومن صلب المرأة وترائب المرأة . ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن ، وهذه هى الحكمة فى غسل جميع الجسد من خروج المنى . كما أن المكث من الجماع يجد وجعاً فى ظهره وصلبه لخلو صلبه عما كان محتبساً فيه من الماء . ونحن إذا تبعنا النطفة وكيف تصبح مختلطة ، فإننا نقول بتبسيط شديد إن الحمل إنما يحدث عن التقاء الماء (الحيوان المنوى للرجل) بالبيضضة للأنتى ، وحين يتم هذا اللقاء يتحد الاثنان فى خلية واحدة ، ثم تنقسم هذه الخلية إلى خليتين ثم إلى أربع ثم إلى ثمان وست عشرة .. وهكذا لتصبح فى النهاية ملايين الملايين من الخلايا التى تكون الطفل الكامل المستعد لاستقبال الحياة بعد تسعة شهور .

ولكن هذا التبسيط الشديد يحتاج إلى بعض الشرح لعدد من النقاط :
أولاً : بويضة الأنتى تنطلق من مبيض السيدة مرة واحدة كل شهر ، وذلك فى منتصف الشهر المطمئن لها (حوالى ١٢ - ١٤ يوماً) من بعد بدء الدورة الشهرية للمرأة وغالباً ما يفرز أحد المبيضين بويضة كل شهر بالتتابع : من المبيض اليمين والشمال أما إذا حدث أن تقابلا مع الحيوانات المنوية فيحدث

(١٣) تفسير القرطبي .

الحمل في توأمين اثنين أو ثلاثة أو أكثر والبويضة خلية متناهية في الصغر محاطة بعدة خلايا أخرى أصغر منها لحايتها وتغذيتها وبعد خروج البويضة من المبيض يلتقطها بوق الرحم وتسير ببطء مع التيار في البوق في انتظار مقابلة الحيوان المنوى ليتم الاتحاد بينهما والحمل ، أو ليجرفها التيار إلى الرحم ثم إلى الخارج بدون أن يشعر بها أحد على الإطلاق وبويضة الأنثى قليلة العدد : واحدة فقط كل شهر ثم هي تتحرك ببطء ودلال في انتظار الذكر ، ولها وسائلها الخاصة في اجتذاب الذكر بأنزيمات خاصة لها فعل السحر في هذا المضمار .

ويعكس بويضة الأنثى فالحيوانات المنوية للرجل يقدر عددها بالملايين في كل مرة وهي سريعة الحركة تنطلق بلا هوادة نحو هدفها الأمثل وهو الاتحاد مع البويضة (ماء دافق) ، وفي طريقها للبويضة تلاقى صعباً كثيرة في رحلتها الطويلة . فعند الاتصال الجنسي توضع هذه الملايين من الحيوانات في الجزء العلوى من المهبل الأنثى وهنا تقابلها عقبات مميته . ذلك أن طبيعة إفرازات المهبل حمضية لا تستطيع الحيوانات المنوية أن تعيش فيها سوى بضع دقائق بالرغم من أن السائل المنوى قلوبى الطبيعة ليعادل الحموضة القاتلة في المهبل .. ولكن معظم الحيوانات تتغلب على تلك العقبات بالسباحة سريعاً إلى أعلى لتجتاز عنق الرحم . ولكي تمر الحيوانات (المهبلية) بعنق الرحم فعليها أن تمر بأهوال أشد وأمر من حموضة المهبل ، فعنق الرحم مبطن بغشاء مخاطى كثير الانحناءات والانتشاءات فيما يشبه قصور التيه أو (بيوت جحا) ، وفي هذا التيه يموت كثير من الحيوانات المنوية وهي تحاول إيجاد مخرج ، ولا ينجح في المرور خلال قناة عنق الرحم إلا ملايين قليلة من تلك الحيوانات المسكينة التي كانت قد بدأت رحلتها منذ دقائق بكل جدية ونشاط . وتخرج الحيوانات التي نجت إلى الرحم نفسه لتقابل هولا جديداً - فالرحم تجويف يعتبر بالنسبة لهذه الحيوانات

الصغيرة تجويفاً واسعاً جداً تتخبط فيه بحمًا عن فتحة ضيقة لبوق الرحم وهي فتحة كراس الدبوس وبذا تهلك ملايين جديدة في هذه الرحلة ، ويصل عدد قليل من الحيوانات في بوق الرحم ويكون عليها أن تسبح في البوق بعكس اتجاه التيار فيه برغم أنه رفيع وملتوحي تصل إلى البويضة ، وتتسابق الحيوانات التي وصلت للاتحاد بالبويضة ولكن حيواناً واحداً منها فقط هو الذى ينجح في هذا المضمار في الوصول إلى هذا القرار المكين ويتحد بالبويضة ، وتتج خلية ملقحة كاملة تنقسم لتصبح فيما بعد علقه (الزيجوت) .

أما العلقه : فهي الدم الجامد .. والعلق الدم العبيط أى الطرى وقيل الشديد الحمرة وهي تلتصق بواسطة المشيمة في جدار الرحم ٤٠ يوماً لتصبح مضغفة .

والمضغفة : هي قطعة اللحم بقدر ما يمضغ ومنه الحديث (ألا وإن في الجسد مضغفة) وهذه الأطوار أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفي العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح فذلك عدة المتوفى عنها زوجها - أربعة أشهر وعشر . وروى يحيى بن زكريا بن أبى زائدة حدثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمران : أن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه فقال يارب ، ذكر أم أنثى ، شقى أم سعيد ، ما الأجل والأثر ، بأى أرض تموت ؟ فيقال له : انطلق إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها قصة هذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتها في أم الكتاب فتحلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت في المكان الذى قدر لها ثم قرأ عامر (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب) . وفي الصحيح عن أنس بن مالك - ورفع الحديث - قال : إن الله قد وكل بالرحم ملكاً فيقول : أى رب نطفة . أى رب علقه . أى رب مضغفة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال

الملك : أى رب ذكر أو أنثى شق أو سعيد . فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه - وفى الصحيح أيضاً عن حذيفة بن أسيد الغفارى : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث إليها الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول : أى رب أذكر أم أنثى .. » وذكر الحديث .

وفى الصحيح عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم - يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغاً مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد .. » رواه البخارى ومسلم .

فهذا الحديث مفسر للأحاديث الأولى فإن فيه : (يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين يوماً علقه ، ثم أربعين يوماً مضغاً ، ثم يعث الله الملك فينفخ فيه الروح) . فهذه أربعة أشهر وفى العشر ينفخ الملك الروح وهذه عدة (المتوفى عنها زوجها) كما قال ابن عباس . سئل الأعمش : ما يجمع فى بطن أمه ؟ قال حدثنا خيثمة قال : قال عبد الله : إذا وقعت النطفة فى الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشراً طارت فى بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم تمكث أربعين يوماً ثم تصير دماً فى الرحم . فذلك جمعها وهذا وقت كونها علقه (١٤) .

(١٤) فترة الحمل تبلغ ٩ شهور عربية أو ١٠ شهور قمرية لاعتبار الشهر القمري ٢٨ يوماً وهذه الفترة قابلة للعجز والزيادة . وقد اصطلح الأطباء على احتساب فترة الحمل ابتداء من أول يوم فى الحيض السابق للحمل مباشرة مضافاً إليه ٢٨٠ يوماً .
وليس معنى هذا أن المرأة الحامل لابد أن تضع مولودها فى هذا التاريخ بالضبط ، وإنما هناك احتمال أن يتقدم أو يتأخر الوضع أسبوعاً أو أسبوعين عن هذا التاريخ المحدد علمياً .

- ولم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوماً وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس كما بيناه بالأحاديث . وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات ، وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف ، وقد قيل إن الحكمة في عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر وهذا الدخول في الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل .

- ومذهب مالك رضى الله عنه أن النطفة ليست بشيء يقيناً ولا يتعلق بها حكم إذا لم تجتمع في الرحم ، فهي كما لو كانت في صلب الرجل ، فإذا طرحته المرأة علقه، فقد تحققنا أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال ما يتحقق به أنه ولد. وعلى هذا يكون وضع العلقه فما فوقها من المضغة وضع حمل، تبرأ به الرحم، وتنقضى العدة، ويثبت به لها حكم أم الولد، وهذا مذهب مالك رضى الله عنه وأصحابه.

وقال الشافعي رضى الله عنه :

لا اعتبار بإسقاط العلقه وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط فإن خفي التخطيط وكان لحمًا فقولان بالنقل والتخريج والمنصوص أنه تنقضى به العدة ولا تكون أم ولد . قالوا : لأن العدة تنقضى بالدم الجارى فبغيره أولى .
والمضغة (مخلقة وغير مخلقة) : قال الفراء : (مخلقة) تامة الخلق (وغير

= وفي حالات نادرة جداً قد يتأخر الوضع كثيراً جداً فبعض الحالات : طال الحمل في إحداها حتى ٣٣١ يوماً وحالة أخرى إلى ٣٤٩ يوماً - ومثل هذه الحالات مشهورة تداولت المحاكم بعضها لإثبات الأبوة حيث حدثت الولادة بعد فترة طويلة من انفصال الزوجين (طيبك الخاص العدد ٧٠ - أكتوبر ١٩٧٤) ص ١٠٥ من مقال للدكتور (على البر .. أخصالى أمراض النساء والولادة) .

مخلقة (السقط . وقال ابن الأعرابي : مخلقة قد بدأ خلقها وغير مخلقة لم تصور بعد . وقال ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء . قال ابن العربي : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلقة لأن الكل من خلق الله تعالى . وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : (ثم أنشأناه خلقًا آخر) . فذلك ما قال ابن زيد .

- والتخليق من الخلق وفيه معنى الكثرة فما تتابع عليه الأطوار فقد خلق خلقًا بعد خلق وإذا كان نطفة فهو غير مخلوق . (القرطبي) .

وأجمع الشافعي وأبو حنيفة : على أن المولود إذا استهل صارنكًا يُصلَّى عليه فإن لم يستهل صارنكًا لم يصل عليه . وقاله ابن المسيب وابن سيرين وغيرهما . وروى عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السقط ويقول سموهم واغسلوهم وكفنوهم وحنطوهم فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم قال ابن العربي : لعل المغيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبين خلقه فهو الذي يسمى وما لم يتبين خلقه فلا وجود له .

(يأيتها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) . (سورة الحج) .

وفي هذه الآية يبين الله لنا قدرته بتصريفه أطوار الخلق .. (ونقر في الأرحام ما نشاء) قال تعالى : (ما نشاء) وليس من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل

أى نفر فى الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة وهى جناد فكنتى عنها بلفظ ما (١٥) .

وقوله تعالى : (ثم نخرجكم طفلاً) أى أطفالا فهو اسم جنس وأيضاً فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد . قال تعالى : (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) . وقال تعالى : (فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً) والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) وولد كل وحشية أيضاً طفل ، ويقال جارية طفل وجاريتان طفل وجوار طفل وغلام طفل وغلما ن طفل . ويقال أيضاً : طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال ولا يقال طفلات . وأطلقت المرأة أى صارت ذات طفل والمطفلة : الظبية معها طفلها وهى قريبة عهد بالتاج . والطفل (بتشديد وفتح الطاء) هو الناعم يقال جارية طفلة (أى ناعمة) وبنان طفل .. وقد طفل الليل إذا أقبل ظلامه .

والطفل : بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب . والطفل أيضاً : مطر .

(ثم لتبلغوا أشدكم) : أى كمال عقولكم ونهاية قواكم .

(ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) : أى أخسه وأدونه وهو الهرم والخرف .

حتى لا يعقل .

(لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) . قال تعالى : (ومن نعمه ننكسه فى

الخلق) .

(١٥) نقصد هنا الكلام عن الإقرار والإخراج (السقط) وليس عن الإجهاض .. فتلك قضية أخرى تحرمها الأديان إلا لضرورة يقرها الأطباء المتخصصون . وليس هنا موضع بحثها . كذلك لم نقصد أن نعرض هنا لعقم الرجل وعقم المرأة أو وسائل منع الحمل وغيرها حيث يمكن أن تكون تلك دراسة مستقلة .

وكان الرسول ﷺ يدعو فيقول : (اللهم إني أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الحين وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنه الدنيا وعذاب القبر) . أخرجه النسائي. عن سعد (١٦) .

* * *

ولسنا نريد هنا أن نعرض للوفاة (الموت) ولكننا نقف لنقول لبني البشر بعد ما أوضحناه ألم بأن للذين ألغوا عقولهم وعطلوا حواسهم أن يتدبروا خلق الله حتى في أنفسهم وهو الذات الإنسانية (؟؟ أم على قلوب أقمها ؟؟ فإذا كانت لديكم حجة تذرعون بها في ضلالاتكم فـ (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) و (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) . (يأبها الناس ضرب مثل

(١٦) في بحث قام به الدكتور/محمد عصام فكرى أستاذ الأمراض الباطنية بجامعة الإسكندرية ونشرته مجلة جمعية أمراض الشيخوخة الأمريكية ذكرت بعض الأرقام التي تصور ما الذي يحدث في الجسم عندما يتقدم العمر من أهمها :

الوزن : يصبح المتوسط ٦٢ كيلو جرام بدلا من ٧٠ كجم (المتوسط في سن الشباب) .
 الطول : يصبح المتوسط أقل بين ٣ ، ٥ سنتيمترات (لعدم استقامة العمود الفقري) .
 القلب : يصبح أصغر وزناً (من ٢٨٠ - ٣٤٠ جراما في الشباب إلى ٢٥٠ جم في الشيخوخة) .
 الكبد : يصبح أصغر وزناً (من ١٥٠٠ - ١٦٠٠ جراما في الشباب إلى ١١٠٠ جم في الشيخوخة) .
 الرئتان والمخ : الرئة اليمنى من ٦٢٥ جم إلى ٤٥٠ جم واليسرى من ٥٦٥ جم إلى ٣٥٠ جم والمخ من ١٢٥٠ - ١٤٠٠ جم في سن الشباب إلى ٩٠٠/١١٢٠ جم في سن الشيخوخة) .
 الكليتان : من ١٧٠/١١٥ جم إلى ١٣٠/٦٠ جم .
 الطحال : من ١٠٠/٢٠٠ جم وأحيانا إلى ٥٠ جم .
 الخصيتان : من ٥٠ في الشباب إلى حوالي ٢٥ جم - كذلك ينخفض وزن أمام الرحم في المرأة من ٦٠ جم إلى ٤٠ جم ووزن المبيضين من ١٢/١٠ جم إلى ٤ جم .
 أوزان ثابتة : الغدة الدرقية - غدة فوق الكلية .
 أوزان تزيد : البروستاتا هي العضو الوحيد الذي يزيد وزنه مع الشيخوخة (من ٨ جم في سن الشباب إلى ٥٠ أو ٦٠ جم في سن الشيخوخة) .

فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن
يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله
حق قدره إن الله لقوى عزيز) .